دراسات

المدينة وصيرورات الحياة
تأملات على هامش الجائحة

توفيق فائزي

مركز أفكار للدراسات والأبحاث
Afkaar Center for Studies and Research

ALL RESERVED©2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020

المدينة وصيرورات الحياة
تأملات على هامش الجائحة

توفيق فائزي
جامعة السلطان مولاي إسماعيل، مكانس

تقديم

يتلقى الوعيُ الآثارَ من وقائع الزمان. وليست الوقائع سيَّان في تأثيرها، فمنها ما هو أشدُّ وقعاً. الوعي منفعلٌ بالتاريخ (Wirkungsgeschichtliches Bewußtsein) كما ينبهنا إلى ذلك غادامير Gadamer. وتحت سطوة الوقائع الشديدة يرى بعينٍ جديدة، ويُصغي إلى ما لم يكن يصغي إليه، ويتغير لحنُ عبارته. إلا أن الوعي لا ينقطع عن ماضيه. الوعي سيلٌ لا ينقطع، والماضي فيه موصول بالحاضر. ينجذب الوعي إلى ما يستأنسه من الماضي المماثل للوقائع التي يُجرّبها، أو إلى ما يستأنسه من وعي غيره ممن جرَّب فرضاً أو واقعاً شبيه الوقائع التي يجربها. نبحث للواقعة التي نشهدها الآن عن مثيلاتها. وصرنا نلتفت إلى أوبئة وجائحات مضت. نقيس غائبا على شاهد. ينجذب وعينا أيضاً إلى من استبق الفهمَ من الماضين. ما إن ارتفع بعضٌ من حجاب الجهل عن هذا الذي نجرِّبه الآن، حتى انجذب الوعي إلى من انكشفت له الدلالات من السابقين. لا شك أن لكل واحدٍ منا وجهةٌ هو مولِّيها من الدلالات التي تنكشف لوعيه، وسيختار من الماضي مراجعه وأسانيده. فما الذي عنَّ لوعي فرد من الناس هو كاتب هذه الكلمات من الدلالات؟ سأكتفي بثلاثٍ، أولاها الحياة، وثانيها المدينة، وثالثها ما بين المدينة والحياة.

1- عالم الإنسان وعوالم الحي والشبيه به

كم نحن في حاجة إلى مزيد ارتياضٍ على التخلص من النظر إلى أننا ذواتٌ في مركز العالم. أقول: مزيد ارتياض لأن هذا الارتياض أو الدعوة إليه ابتدأ منذ زمان، وليس وليد الواقعة الآن. الإنسان عالمٌ بين عوالم أخرى."عوالم الحيوان وعالم الإنسان" عنوان كتاب

ألَّفه ياكوب فون أكسكول Von Uexküll Jacob[1] وهو سندٌ من أسانيد الفطنة التي نعرضها في هذه المقالة. مثَّل بعوالم القُراد Tique والذباب والنحل وحيوانات أخرى، ونضيف عوالم الشبيه بالحي كالفيروس الذي نشهد اجتياحه عالمنا. بل نضيف أيضاً عوالم أقدم من الحياة وأشباهها. عوالم في عالمٍ نفترض افتراضاً أنه واحدٌ، ونفترض أنه جامعٌ، من أجل فتح إمكانية تدبير جماعي. الجزء الحي والشبيه به من العالم وكيف يُدبر الأمر فيه موضوعُ علم هو الأيكولوجيا (Ecologie). هو علم تدبير منزل الأحياء وأشباهها. ليس الإنسان بمفرده في هذا الجزء من العالم فهو بمعية غيره. ولكن عوالم الحي أو الشبيه بالحي، ليست عوالم خارج عالمه. فقد يوهم عنوان الكتاب بأنها عوالم لا تتماس، معزولٌ بعضها عن بعضٍ؛ والأمر ليس كذلك. إنها عوالم تتصف بالنفاذية. هي عوالمُ متداخلة لا تخوم بينها، يخترق بعضها بعضاً، تنفذ ساكنة عالم إلى العوالم الأخرى. يقتات البعض من البعض الآخر. حتى أن الأمر بلغ بأحدهم وهو إمانويل كوتشيا Emanuel Coccia أن يرفض استعارة المنزل في الأيكولوجيا، حيث الإيهام بالمكوث والاستقرار. الأحياء في ظعنٍ دائم لا يستقر لهم قرار، "نحن مضطرُّون إلى الانتقال وتغيير المسكن وتغيير جسدنا، أو على العكس أن نصير مسكن الغير، أن نجعل من لحمنا منزلا ليس لجسم آخر فقط، لكن وبالأخص لنوعٍ آخر أيضاً."[2]

الإنسان عالم يشتمل على عوالم من الكائنات الحية، من البكتيريا وغيرها تسكنه (تعدادها بالملايير، وأنواعها بالمئات). ولا ننسى أن فرضية أن تكون الميتكندريا (Mitochondrie) المنتجة للطاقة داخل خلايانا بكتيريا في الأصل.

يعود إمانويل كوتشيا إلى إحياء مفهوم إيكولوجي ليجعله النموذج في تصور العلاقة بين الكائنات، إنه نموذج الاقتيات (Nutrition) وهو دليل على عدم صلاحية نموذج التساكن أو المصاحبة. يؤسس الاقتيات للعلاقة بين الكائنات، وبتلك العلاقة يُنتج العالم

---

[1]- صدر الكتاب في هامبورغ Hambourg بعنوان: *Streifzüge durch die Umwellen von Tieren und Menschen* عام 1934.

[2]- Emanuele Coccia, « HORS DE LA MAISON, De l'alimentation ou de la métaphysique de la réincarnation », Multitudes, 2018/3, No 72, pp.101-108, p.108.

وتُحدث الأمة الكونية[3]. يلتفت إمانويل كوتشيا إلى لحظات العبور، ونلتفت نحن إلى لحظات إقامة عابرة، فلندعه ونعُد إلى أكسكول حيث يقف على لحظات الاستقرار والتساكن والصحبة.

يبسط أكسكول الأمر حيث يرى أن لأي كائن حي، ونضيف أيضا الشبيه بالحي، مستقبِلا(Récepteur)، يحولُ دون مرور ما لا يُناسب مما لا يعني الحيوان في غيره. يختار فقط ما يستقبله من الغير مما له فيه غرضٌ وحاجة. وذلك يُمثِّل حدود عالمه، وما يدركه مما هو أعظمُ إحاطة. فكأنما ما يدركه هو الظاهر، والعالم الأعظم المحيط هو الشيء في ذاته بلغة كانط. ولكن الشيء في ذاته إضافي، وما يعتبره حيوان أو شبيهٌ به كذلك، ليس بالنسبة إلى غيره. هو يقتطع من العالم المحيط قطعةً هي وسطه، وهي عالمه الذي هو فيه ذاتٌ، وله فيه السيادة والتحكم. لكل كائن حيٍّ مستقبِل لا ينتخب إلا المناسب في الغير كحرارة المضيف وحامض البيوتريك (Acide Butyrique) بالنسبة للقُراد مثلاً؛ لرصد الضحية. ولا يعنيه في الضحية غير هذا. وكالفيروس الذي لا يعنيه غير نوع من أنواع الخلايا في غيره يتعرَّفها. وينتهي الأمر في الأخير إلى الفعل في ما رُصد. كنفاذ القراد في جلد الضحية، أو تكاثر الفيروس باستعمال الخلايا. شبَّه أكسكول الأمر بالكماشة التي تشد الأمر من طرفيه، فمن طرفٍ يُدرَك المناسب في المضيف، ومن جانب يُفعل في المضيف ما يُحقق غرضا حيويّاً.[4]

للفيروسات مستقبلات، وهي ترصد الخلايا المناسبة للتكاثر باستعمال جينوم الخلية وإدخال تعليمات جديدة قصد التكاثر. قبضٌ مزدوج، قبضٌ بالقوة وقبضٌ بالفعل، قبضٌ إدراكيٌّ وقبضٌ حركيٌّ. فمن طرف يكون الرصد، ومن طرف يكون الفعل في ما رُصد. ولا يُلتقط من المحيط إلا ما يحمل خصائص إدراكية (Caractères perceptives)[5] أي أن

---

[3]-Ibid, p.107.

[4]- « Pour parler par images, chaque sujet animal enserre son objet dans les deux branches d’une pince-une branche perceptive et une branche active » Jacob Von Uexküll, *MONDES ANIMAUX ET MONDE HUMAIN*, suivi de *THEORIE DE LA SIGNIFICATION*, Traduction de Phillipe Muller, Editions Denoël, Paris, 1956, p.23

[5]- Ibid, p.23.

ذات الحيوان لا تُدرك مما هو موجود إلا ما لها الاستعداد لأن تُدركه، ولا تدركه إلا لتفعل فيه مما لها حاجةٌ إليه، وكل إدراك يُفضي إلى فعل. فإدراك حامض البيوتريك يُفضي إلى فعل السقوط على الضحية، والتَّماس مع شعيراتها يُفضي إلى طلب مكانٍ خالٍ منها حيث الإحساس بالحرارة للنفاذ في جلد الضحية، والنفاذ في جلد الضحية ينتج عنه امتصاص دم الضحية وهو عَشاؤه الأخير، وهو بدوره يفضي إلى السقوط على الأرض وبعثرة بيضه. ضمن المئات من المثيرات الآتية من الضحية ثلاثٌ فقط تحمل خصائص إدراكية: حامض البيوتريك والشعيرات والحرارة. مثيرات لامعةٌ، يُشبهها أكسكول بإشارات ضوئية محاطة بالظلمات، تُهديه إلى الهدف يقينا.[6]

ولكن ما الذي يجعلنا نحكم بوجود عالم واحد لا يدرك حقيقته إلا الإنسان؟ إنها لغة النوع التي تُعلمنا الحفاظ عليه، إنه نظام إدراكنا الموصول بنظام فعلنا. نظامان يرسمان لنا حدوداً لما يمكن إدراكه، ولما يمكن فعله مما يحافظ على حياة النوع مع حياة الأنواع الأخرى أو ضدها. قد يكون للإنسان فضلٌ على غيره إن اعترفنا بأنه وجهة نظر متفرِّدةٌ، عينٌ خارج هذه العوالم كلِّها. تُطل من أعلى على العالم الأعظم المحيط: المنزل الذي يتساكن فيه الجميع. وبإمكانه أن يتقمص وجهات النظر الأخرى. فينظر بنظر القُراد أو الفيروس أو النحلة، ويضع نفسه مكانها ويرى بعينها. ولكن، هل سيكون إدراكه محايدا؟ هل لزاوية نظره الفضل على غيرها؟ ليست بذلك زاوية نظرٍ بل الزاويةَ التي من خلالها يمكن النظر إلى جميع زوايا النظر؟

ليس إدراك الإنسان إدراكا محيطاً محايداً بل منفعلا بتاريخ الطبيعة. أي أن تاريخاً طويلا تَرك أثره، وجعل إدراكه ووعيه مليئين بآثار التطور وما أفضى إليه. وإذا كان الإنسان بناءً اشترك في بنائه غيره، فإن إدراكه كذلك. وما لدينا من التمثلات عن الغير ليست تمثلات موضوعية. وفي تيار الحياة الذي يجمعنا بالغير لا نُدرك ما ندرك منه من

[6]-« Dans le monde gigantesque qui entoure la tique trois stimulants brillent comme des signaux lumineux dans les ténèbres et lui servent de poteaux indicateurs qui la conduiront au but sans défaillance » Uexküll, Op.cit, p.26.

الصور إلا بعد أن نفتعل الثبات في الديمومة، وحتى ينحبس تدفق تيار الحياة واندفاعه بسدٍّ من الصور والتمثلات توهم بالتمايز والانفصال؛ تمثُّلات في خدمة إرادة انفصلت فتنكرت لإرادة الكل. الحياة عمل (Processus) ابتدأ ولم ينته، خلقٌ مستمر، تدفق دائب، سيلٌ عرِمٌ. لسنا إلا عتبة من عتباته، هو فينا، نعم نستعمله؛ ولكن يستعملنا أيضا، يخترقنا ويعبرنا ليستأنف سيره، لسنا نهايته ولا غايته ولا كماله .

لم ينته الخلق، خلقُ الحياة وغيرها، كما قال كانط: "ابتدأ يوماً لكن لن ينتهي أبدا. إنه في دائم الفعل ليجعل الطبيعة تخطو خطوة أخرى، لتُنتج أشياء جديدة، وعوالم جديدة. والعمل الذي أكملته الطبيعة متناسب مع الزمن الذي لم تنِ فيه لإكماله. ولا يوجد أقل من الأبدية لتملأ بعوالم لا تُحصى وبلا نهاية؛ كُلَّ الامتداد اللامحدود للمكان اللانهائي" [7]. وما تُميز ملامحَه أبصارُنا ليس شيئا لو قيس بما يحيط بِنَا من العوالم اللامرئية. هذه العوالم اللامرئية من أنظمة الطبيعة هي ما يهيمن علينا ويشملنا. هي أقدم (ملايير السنين) وأعظم منه، ولا يحيط بكنهها وهي تحيط به. هذا الذي نُعت بالفيروس (Virus) نعتٌ بصفة توهم فيه الذكورة والقوة وتوهم أننا في مواجهته، ذلك بسبب انفصال ذواتنا عن الكل الذي ننتمي إليه. حُقَّ لنا أن نستعمل استعارات كالمواجهة والمقاومة والحرب للحفاظ على حياتنا ولكن بوصفنا نوعاً، بوصفنا عالماً نتوهم أنه في مواجهة عوالم أخرى. كل ما نعتبره حقيقة يقف خلفه جيشٌ من الاستعارات كما يقول نيتشه. إدراكاتنا صورٌ وتمثيلات واستعارات ليست محايدة. هي في تبعٍ لإرادتنا.

لنعدِّد زوايا النظر، لسنا ذاتا إلا في وسط يبدو أننا نُهيمن عليه، ونجعل غيرنا قوتاً لنا. لكنَّنا أيضاً موضوعات في أوساط أخرى لم نكن ندركها. فجأة يجتاحنا الغير من أوساط أخرى فنصير قوتا له. على مائدة العَشاء حيث لا نأكل بل نؤكل. الوجود مأدبة كما تصور ذلك إمانويل كوتشيا. ويصحُّ القول إن الإنسان ليس حتى ذاتا بل وسطٌ (Milieu). وهذا الوسط ليس وسطا في ذاته، وليس له صورة محدَّدة نهائية؛ إذ يُتخذ وسطاً بصور مختلفة من

---

[7]-Kant, Immanuel, *Universal Natural History and Theory of Heavens,* translated by Ian Johnston, Richer Resources Publications, 2008, p.107

أغيار. كلُّ غيرٍ يميز في الإنسان بوصفه وسطا علامة يتوجه من خلالها إليه، لاستعماله استعمالا خاصّاً يحافظ به على حياته. من زاوية نظر الأغيار يبدو الإنسان عالما مليئا بالدلالات، وحاملا بها (Porteur de significations).[8] وينتخب كلُّ واحدٍ فيه دلالات تعنيه دون غيرها، وقد لا يجد فيه الغير أي دلالة، وقد يستجد الأمر فيجد فيه دلالة لم يكن يجدها من قبل؛ فكأنه صار يُميز بعد أن لم يكن يميز. ويمكن مماثلته بالغابة التي قال عنها فيرنر سومبار Werner Sombart.

"لا توجد غابةٌ باعتبارها وسطا محدَّداً موضوعيا، توجد غابة حارس الغابة، وغابة الصياد، وغابة النباتي، وغابة المتنزه، وغابة صديق الطبيعة، وغابة جامع الحطب، وغابة مجتني التُّوت البرّي، وغابة قَصص الخيال حيث يضل عقلة الإصبع Petit Poucet"[9] كذلك الإنسان بالإضافة إلى غيره.

ليست تقوم الموضوعات بفضلِ إدراكنا لها، فيُدَّعى أنها تزول بزوال ذلك الإدراك[10]. وليس إدراك الإنسان بالمرجع النهائيِّ. للموضوعات وجودٌ مستقلٌّ خارج ما ندركه منها، وليست تنتظر الحكم النهائي عنها منَّا. وليست خارجَه يُحيط بها. هو المحاطُ منها. لا يُلامس بإدراكه إلا سطوحها، وينسحب باقي ما لم يدركه إلى سرداب يتوارى فيه خزّانٌ من ممكنات أخرى لانهائية من الإدراك[11]. هو نفسه موضوعٌ لانهائي لغيره، إذ لا يبلغ غيرَه منه سوى إشارات مُحاطةٌ بالظلمات. ولننطلق من الواقعة التي نُجرِّبها الآن. إذ لم يبلغ الفيروسَ إلا إشارات منَّا من داخل ظلمات محيطة، التقطها فقصدنا. لم يُدرك منا سوى سطح من سطوحنا، وتوارى الباقي منا لا يدركه.

---

[8]-Uexküll, *Théorie de la signification* In *Mondes animaux*, Op.cit, p.93.

[9]-"Il n'existe pas de forêt en tant que milieu objectivement déterminé, il y'a une forêt-pour-le-forestier, une forêt-pour le chasseur, une forêt-pour-le-botaniste, une forêt-pour-le promeneur, une forêt-pour-l'ami de la nature, une forêt-pour-celui-qui-ramasse-du-bois ou celui-qui-cueille-des-bais, une forêt de légende où se perd le petit Poucet" Cité par Uexküll, *Théorie de la signification* In *Mondes animaux*, Op.cit, p.97.

[10] - هو رأي الفيلسوف الإيرلندي جورج بيركلي George Berkeley (1685-1735)

[11]ـ نجد من أسانيد ما نعرضه في هذه المقالة، اتجاهٌ فلسفي رفع من شأن الموضوع مستنقذا إياه من إحاطة الذات، خصوصا في الاتجاه الذي صار يُعرف ب Object-oriented ontology، ومن بين أشهر ممثليه الفيلسوف الأمريكي Graham Harman، خصوصا في كتابه بعنوان: *Tool-Being, Heidegger and the metaphysics of objects*. تستلهم هذه المقالة بعضاً من أفكاره بشأن تصوره للموضوع.

2- الحداثة ووهم السيادة على الحياة

ترسخ في عهد الحداثة الوهم بأننا خارج العالم، وأن لنا وعيا شفافا به. انزوى الإنسان بفكره، وحاول أن يعالج مكانا كأنه خارج الطبيعة. وضع نظاما للإدراك هو الأكثر تجرُّدا وتعاليا، ونظاماً للفعل هو الأكثر فعالية. صيَّر العالمَ مختبرا للتجريب، لإدراكٍ شامل محيط يتوسل بأنجع الأدوات. وأباد الفكرُ أي تمايز في الكائن، استبدل بالأمكنة الكيفية، أمكنة أرسطو الأليفة، وأمكنة عيشنا وعيش غيرنا الأنيسة، أمكنة باشلار Bachelard في "شعرية المكان"؛ مكاناً واحداً مجرداً رياضيا، مكان نيوتن أو كانط، أو مكاناً أبعد تجريداً. واستبدل بزمان حياتنا أو حياة غيرنا؛ زمانا واحدا موضوعيّاً ليس هو زمان العيش، منفي خارج أزمنة تجاربنا الكيفية إلا ما يُجربه الفكر المجرد.[12]

وعاد إلى منزل الطبيعة وقد عمِي؛ فلا يتميز له فيها فروقٌ نوعية؛ إذ قد اكتشف أن الكلَّ يرجع إلى مبدإ واحدٍ هو الطاقة. وقد أوتي من القدرة على تحويلها والتصرف فيها وفق قواعد موضوعة. وصار المنزل كأنه تحت الارتهان الكامل ليأتمر بأوامرنا، وننال منه ما نريد. ونصير الطفيليَّ بامتيازٍ، نقتات على منزل الطبيعة.

3- المدينة باعتبارها وسط الإنسان في عهد الحداثة

ناسب الانعزالَ داخل الفكر واعتبارُ ما عداه امتداداً تحمل به المادة؛ الانعزالُ داخل وسط من نوعٍ جديدٍ إنه المدينة الحديثة. في المدينة يحتفظ الإنسان لنفسه بمكانٍ معزولٍ، وقصر مشيد للاحتماء والامتناع. يتوهم أنه يُحرز فيه نفسه، ومنه يمكنه استعمال غيره من الكائنات الحية أو إبادتها.

لنتذكَّر أن الحداثة اقترنت بحرب ضارية ضد أشكال الحياة. حتى أشكال الحياة الإنسانية، بطلها شكل الحياة الذي هو الإنسان، وبحرب أيضا لعِرقٍ (Race) من البشر يعُدُّ نفسه الأرقى ضد أعراقٍ أخرى. فالصراع كان بين من تيقن باستواء إنسانيته، ضد من أوهم فيه عدم استوائها، فشبَّهه بالحيوان. وقد تجلَّى الأمر في تنظيم المدينة والفضاء في

---

[12]ـ نجد أيضا في كتاب **عوالم الحيوان وعالم الإنسان** تحليلا ضافيا لأمكنة والكائنات الحية وأزمنتها. والعبرة الفلسفية منه، أنه لا يوجد مكان واحدٌ أو زمان واحدٌ، بل لكل كائن حيٍّ حدوسه للمكان والزمان، خالصةٌ لكلِّ واحدٍ منهم.

المستعمرات، وفي الأنظمة العنصرية. إن التدبير المدني الحديث تدبيرٌ حربيٌّ ضد أشكال الحياة الأخرى، ومنها أشكال الحياة الإنسانية. وتزامن تحسين النسل في الداخل وفق معاييرَ، مع الإبادة في الخارج. إبادةٌ مسَّت الإنسان وغيره.

ولكن ما يجعل هذه الحرب متفردة هو أن السلطة في الحداثة تناولت الحياة بالتدبير الشامل. تحوَّلت حقيقة السيادة. كانت السيادة في الاستحياء والإماتة بمعنى ضعيف، أن يستحيي صاحب السيادة من أراد قتله، وأن يقتل آخر: "أنا أحيي وأميت". ولكن صارت السيادة على الحياة بمعنى أقوى. تستجمع السلطة في قرار حفظ حياة الفرد والنوع كُلَّ القوة التي في المعرفة الحديثة عن الحياة. تتدخل الدول بسياساتها الصِّحيَّة في الإنسان منذ البدايات.

وتمثلت السيادة في القدرة المطلقة على العناية بحياة الساكنة (Population) كما بيَّن ذلك مشيل فوكو M.Foucault. صارت الساكنة معطى طبيعيا له قوانينه الطبيعية. وصارت السلطة بالمعنى الجديد تُسلِّم بهذا الأمر، ويكون تدخلها بالعمل على التصرف في تلك القوانين والتدخل فيها، بالحكم (Gouvernement) بدل السيادة المتعالية. تستلم السلطة الطفل من مهده، وتتملكه بالعناية والرقابة حتى اللحد. وتتحكم في حياةِ السَّاكنة بالرقابة على المواليد والوفيات، وبسياسات تحديد النسل أو توسيعه وتجويده.

ذلك ما نجد الحديث عنه في الجزء الأول من كتاب فوكو: Histoire de la sexualité؛ إذ يبين أن الهيمنة على الحياة بدأت تتنامى منذ القرن 17، واتخذت صورتين. وتعنينا الصورة الثانية التي محورها الجسد- النوع، الجسد باعتباره معبرا لميكانيكا الحياة، ودعامة للصيرورات الحيوية : التكاثر والمواليد ومُعدَّل الوفيات، مستوى الصحة ومدة الحياة ومعدل البقاء، مع كل الظروف المحيطة التي قد تجعل هذه الأمور متغيرة. يكون التكفل بفضل سلسلة كاملة من التدخلات والتحكمات: إنها سياسة حياة الساكنة.[13]

---

[13]- Foucault Michel, *Histoire de la sexualité, I Volonté du savoir*, Editions Gallimard, Paris, 1976, p.183

عامة، استعانت الدولة لحماية الوسط الإنساني وجعله منيعا بأنظمة صحية، وبسياسات صحية عمومية. وتوهمت أنه وسطٌ منيع يزداد مناعة بعد الحروب البيولوجية التي خاضها الإنسان، وحوَّل انتصاراته إلى استراتيجية مستقبلية للمناعة، مناعة تُزرع في جسم كل فرد عبر برامج التطعيم (vaccination) الجماعي. ويكون التطعيم أو اللقاح بزرع مسبب المرض: فيروس أو بكتيريا وهو ميت أو قد غُيِّرت بعض خصائصه؛ في الجسم لاستثارة المناعة ضده. فكأن المُمرض (Pathogène) أسير حرب ذليل أو ميت، نعلن انتصارنا عليه في كل عملية تطعيم. تضع الدولة برامج للتطعيم الجماعي، ونقرأ في هذه البرامج تاريخا للصراع ضد أوبئة تؤرخ للحروب التي خاضها الإنسان. تأبيد لانتصارات سابقة.

4. حالة الاستثناء الحيوية

تأسس التدبير المدني على تدبير الحياة، وينكشف الأمر للعيان في حالة أُسمِّيها بحالة الاستثناء الحيوية (نسبة إلى الحياة). حيث لا يكون "العدوُّ" إنسانا آخر فتكون الغيرية غير جذرية بل حينما يكون "العدو" حيًّا آخر أو شبيها بالحي، وتكون الغيرية جذرية. آنذاك يشتد الحرص على حفظ حياة الساكنة. وهذا لا يعني أن حياتها لم تكن مصونة فيما قبل، أي في العادي من الأيام. وتنمحي الفوارق داخل المدينة (أو الدولة) بين العدو والصديق. ولا معنى لبقاء الفرق حينما يغشى الموجُ الجميع. يكون احتضان الساكنة بالعناية المركزة علامةً على أن النظام السياسي في المدينة يقوم على تدبير حياة الساكنة، ولولا ذلك التدبير لما قامت له قائمة. وفي حالة الاستثناء الحيوية يتضح أن الخشية على الساكنة هو خشية على النظام السياسي أيضاً، خشية أن تعصف به وبالساكنة الجائحة على حدٍّ سواء.

تبيَّنت في حالات الاستثناء الحيوية التي شهدتها الكثير من الدول في واقعة الوباء العالمية الأخيرة، وعلى حين غرة من الأنظمة؛ هشاشةُ الحياة في المدينة، وأن التدبير

السياسي هو تدبير للحياة أولا، وأن السيادة تؤول في الأخير إلى القدرة على الفصل في أمرها. فلقد انكشفت حقيقةٌ لجميعنا: أن بروج المدينة المشيدة ليست بمعزل عن صيرورات الحياة التي تعبرها غير آبهة بالحدود التي وُضِعت. ويُشبه وهمنا وهمَ الأمير في قصة "قناع الموت الأحمر"(The Mask Of Red Death) لإدغار آلان بو Edgar Allan Poe. إذ انسحب الأمير وحاشيته ليلوذوا بقصر منيع غُلِّقت أبوابه، وقد اجتاح وباء الطاعون البلدة. وألهى الأميرُ من انتخبه من الحاشية بأفراحٍ تناسوا بها الموت الذي كان يحصد أرواحَ الناس خارج الأسوار. يغمرهم الفرح، ولا ينغصه إلا صوت ساعةٍ داخل القصر بدقات مرعبة تذكرهم بالزمن الذي يمرُّ. إلى أن أقام الأميرُ حفلة تنكُّرية لا مثيل لها. وحضر الحفلة زائرٌ برع في التنكر في رداء الموت الأحمر، وارتدى قناعاً يرمز للموت. أنكره الجميع، ولما أرادوا النيل منه لم يجدوا وراء القناع ولا الرداء شيئاً، ووجدوا الموت اللامرئيَّ حصدَ أرواحهم جميعا. خفاءٌ يذكِّرنا بخفاء ما يجتاحنا الآن في وسط ظنناه منيعا سيعصمنا من الغير. لا عاصمَ اليوم ولا غداً من أن تتمكن منا صيرورات ليست للحياة وحدها، بل صيرورات طبيعية أخرى قد يكون الإنسان نفسه من استثارها. إن للأيكولوجيا الفضلُ في تذكيرنا بالمنزل المشترك: الأيكوس (Oikos)، منزلٌ يسكن فيه البعض في البعض الآخر، وليس مع البعض الآخر فحسب. إن طريقة تدبير الإنسان وسطَه (المدينة) كأنها تناست هذه الحقيقة. فهو في منزل الطبيعة كان مستبِدّاً متسلطا، وتصرف كما لو أنه وحيدٌ في ذلك المنزل، أو في عزلة عن غيره، وكان التدبير حربيا ولا زال. وها هو وقد صار وسطُه مباحا. وانسحب من المدينة لتصير مرتعاً لغيره. صحيحٌ أن سياسة التسلط كانت ناجعة، وهي التي نجد تجسدها العنيف في تدبير الصين الأخير. وهو تدبيرٌ لم ينفصل فيه التسلط على ما أُرسل على المدينة مما ظنوا المدينة محصَّنة ضده، عن التسلط على الساكنة، ويوشك بذلك أن يتحوَّل إلى شمولية. ولكن هل سنعتبر هذه السياسة نموذجية، سواء في تدبيرها الداخلي، أو تدبيرها لما توهمته خارجها؟ سيعترف الإنسان أكثر الآن أنه ليس وحيدا في منزل الطبيعة. وألا حدود مرسومة نهائيا بين العوالم، وأن ساكنةَ عالم قد تُستضاف في عالم آخر. الفيروس في التخوم بين الحي والجماد، وبقاؤه لا يكون إلا في ضيافة غيره، وَفي

مضيفه (Hôte) لا يعنيه إلا ما رصده وتعرف عليه من الخلايا المناسبة لتكاثره. ولكن كيف تغير المضيف؟

5- تدبير المدينة وصيرورات الحياة

قد يُقال إن التدبير التسلطي والحربي ما زال التدبيرَ الأصلح. ونحن نشهد الآن حربا جديدة. ما يتعلمه الوعي فقط هو أن الإنسان لم يسُد بالكامل على منزل الطبيعة، بقيت بعض الثغور التي يلزَم مستقبلاً السيطرة عليها. وأن الإرادة الإنسانية ستنتصر في الأخير. أو قد يُقال إن الإنسان مثل سيزيف (Sisyphe) لن تنتهي حروبه أبداً. وأنه سيحمل الصخرة من جديد ليُعلن انتصاره مرة أخرى، دون أن تكون المرة الأخيرة؛ إذ عليه أن يرفع التحدي من جديد. إن الأيكولوجيا ذاتها قد تكون أداة تُستعمل فقط لدراسة المنزل لغاية التعرف على أوساط الكائنات الحية أو الشبيهة بها. ومعطيات الأيكولوجيا ستُستعمل فقط لتفادي الآثار الجانبية، وتعبيد الطريق أكثر لآلة الاستغلال الجهنمي للطبيعة.

أو قد يُقال إن التدبير التسلطي أبان عن فشله، ونجد الكثير ممن استبق وفطِن إلى البدائل كمن اقترح عهداً جديداً مع الطبيعة[14]، أو من سعى إلى تأسيس مبدإ المسؤولية[15]. أو من حاول إحياء قداسة أضعناها للعلم أو للأرض[16]. قد يكون الملاذ أحياناً إحياء مذهب وحدة الوجود والحياة. ليست إرادتنا إلا إرادة منفصلة عن إرادة كلية وشاملة. وستكون الفضيلة الأسمى هي الرحمة والتعاطف مع كل أشكال الحياة[17]. ونجد في تحليل إمانويل كوتشيا السابق إشارات إلى مثل هذا الموقف. ففي الاعتراف بحقيقة ترحال الحياة، وألا أحد من الأحياء يملك مسكنا؛ دعوة إلى أن نقبل طائعين بالرحيل أيضا.

ومن جهتنا نلوذ بالواقعة التي نشهدها الآن فهي التي يُنتظر منها أن تُعلمنا وترشدنا بشرط أن يُتمعَّن فيها، فلعل دلالات ذات قيمة نحظى بها. نتعلَّم أن للواقعة التي نجرِّبها الآن، مثيلاتُها من الوقائع الدالة على وجود صيرورات لأنظمة الطبيعة الموغلة في القدم.

---

[14]- مشيل سير :Michel Serres في كتابه العهد الطبيعي « *Le contrat naturel* »

[15]- هانس يونا Hans Jonas، في كتاب مبدأ المسؤولية « *Le principe responsabilité* »

[16]- نجد سيد حسين نصر مثلا يدعو إلى إعادة مصالحة العلم بالمقدس، كما نجد الكثير ممن حاول أن يرجع للأرض القداسة التي ضاعت.

[17]- ما نجده لدى آرثر شوبنهور Schopenhauer Artthur في عمله العظيم *"العالم باعتباره إرادة وتمثلا"*.

صيرورات قد يتوهَّم الإنسان أنها توقفت بتحكم الإنسان فيها، وهي لن تتوقف أبداً. إنها مثالٌ متفرد حقّاً لصيرورات جامحة وهائلة لا حدود لها، ومثالٌ لعظمة يمكن أن تفاجئنا فتجتاحنا بمدى واسع. حُقَّ لنا أن نرتاب، وألا نطمئن مستقبلاً إلى وجود نظام مستقر يُوافقنا موافقة مطلقة. وعلى قدر الاطمئنان تكون المفاجأة. وليس نظام المجموعة الشمسية الذي هو من أكثر الأنظمة انتظاما في مأمن من الاختلال، فيُرسل علينا صيرورات مدمِّرة. إن ما يُنتظر منا بشأن هذه الصيرورات هو أن تُفحص حقيقتها مليّاً. هي موجودات متفردة، أغوارها بعيدة تتخطَّف عقل الإنسان ووجوده بأعظامها الهائلة. فليستجب الإنسان لفهمها بسبر أغوارها، وقياس مدى تأثيرها على وجوده الهشِّ فوق الأرض. ليست الصيرورات الطبيعية وحدها ما يستحق أن يُفحص، بل أيضا ما يستثيره الإنسان من صيرورات جديدة في الطبيعة. ويُضيف الإنسان عبئاً جديداً على نفسه؛ إذ صار لزاما أن يتعرف ماذا تسبب له تدخلاته التي تعود عليه بالآثار. ولا يُستبعد أن يكون الوباء الأخير نتيجة لاستثارة الإنسان لصيرورة طبيعية انقلبت عليه. فقد يكون الفاعل إنسانيّاً تسبَّب في استيطان الفيروس الجديد جسدَ الإنسان، وتغييره للمضيف، فاتخذ سبيله إلينا.

ونتعلَّم من هذه الواقعة أن صيرورات الحياة ليست خارج الإنسان، وليس مبرَّأً منها، أو بمعزل عنها؛ والسبب هو أنها تنطوي جميعها فيه. ليس الإنسان باعتباره عالماً في عزلة عن العوالم الأخرى، إذ لا تخوم بينها كما رأينا. ليست للمدينة المناعة التي نتوهم. ليست المدينة بمأوى آمنٍ للإنسان، لا المدينةُ ولا المنزلُ ولا حتى جسده الذي يستوطنه الغير. وهذا يحتاج إلى تأسيس تدبير مدني ينطلق من الفطنة بأن المدينة ومن فيها مُحاطَةٌ لا مُحيطة بغيرها، وإلى توخِّي سياساتٍ للاحتراز بديلا للمجابهة والحرب، وسياسات تلطُّفٍ مكان سياسات التسلط. وهذا مبدؤه الفطنة بأن ثنائية الداخل والبرَّانيِّ ثنائية خادعة، فما نعدُّه برَّانيّاً هو في داخل دواخلنا. ونتعلَّم أيضاً أن إدراك الإنسان ليس بالمرجع النهائيِّ. ذلك أن إدراكه لا يمس إلا سطوح ما يحيط به، ويغمره من الموضوعات اللانهائية واللامرئية التي لا تنفكُّ تتوارى وراء ما يُدركه من ظواهرها.

المراجع:

1. Emanuele Coccia, « HORS DE LA MAISON, De l'alimentation ou de la métaphysique de la réincarnation », Multitudes, 2018/3, No 72, pp.101-108.
2. Foucault Michel, *Histoire de la sexualité, I Volonté du savoir*, Editions Gallimard, Paris, 1976.
3. Kant, Immanuel, *Universal Natural History and Theory of Heavens*, translated by Ian Johnston, Richer Resources Publications, 2008.
4. Jacob Von Uexküll, *MONDES ANIMAUX ET MONDE HUMAIN*, suivi de *THEORIE DE LA SIGNIFICATION*, Traduction de Phillipe Muller, Editions Denoël, Paris, 1956.

مركز أفكار للدراسات والأبحاث

Afkaar Center for Studies and Research

https:// Afkaar.Center

afkaarcenter@gmail·com

twitter·com/AfkaarCenter

facebook·com/AfkaarCenter

ALL RESERVED©2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020